ماذا نعرف عنه ؟

بقلم ميشيل سليم كميد

وافصح من قس ، واجرى من الذي
يذي القيل ، من خفّان اصبح خادرا
(اعشى قيس)

اسقف نجران ، وفيلسوف العرب ، وشاعرها ، وخطيبها ، وحليمها ، وحكيمها ، وحكمها ، تُضرب بحكمته الامثال ، وتكشف به الاهوال !

صفات والقاب ضخمة تفخم بها الرواة ، واحاطوها باسمه هالة ! ولم يذكروه الّا مجلّلاً بالتبجيل ، مزدانًا بالتكريم ، محاطاً بالتعظيم !!

الرجل

نسبه – شيء عن عمره

هو قس بن ساعدة ، بن عمرو ، بن عدي ، بن مالك ، بن ايدعان ، بن اياد ، اسقف نجران ، لا يعرف وقت مولده ، وقد زعموا انه ولد في زمن الرسل ، وانه عمّر الثلثمائة او السبعمائة عام . وفي هذا من الخلط شيء كثير ، تنبو عنه الاسماع ، ويلفظه الصدق ، ويأباه العقل .

وقد زعم عنه الرواة اشياء على هذا النحو ، ومع ان فيها الكثير من المبالغات ، فهي ترشدنا على الاقل ، الى تلك الحرمة التي كانت له في نفوس الاعراب ، حتى دعتهم الى تكريمه ، باختلاق الروايات عنه ، والتحدّث بامثال هذه المبالغات والترّهات .

والآن ، قبل ان نتبسط في مدارج الحديث عن شاعرنا ، وسرد لطائف اخباره ، ومحاسن اشعاره ، يجدر بنا ان نقف هنيهة ، ونبحث قليلاً فيما اورد له من شعر ، وما نفح به من خطب ، لعل في ذلك فائدة تجنى .

بين الانتحال في خطبه وشعره

دعنا نتساءل ، أقس قائل هذه الخطب التي ذكرها الرواة وتناشدها الركبان ؟ ام ان ايدي التحريف والانتحال ، امتدت اليها بسوء فعبثت بمحاسنها ، وافسدتها في بعض نواحيها ؟ امام هذا السؤال نقف ونردّد ان ليس كل ما هو موجود لدينا لقس ، ولو بعث الآن من مرقده ، لرفض الكثير منه . وظننا ان ما قاله حقيقة قد اغتالت يد العبث اكثره ، وحوّرت الباقي ، فان بعض المختلقين من الرواة ، الذين ضرب الله على عقولهم ستاراً كثيفاً مظلماً ، تلاعبوا في اشعاره وخطبه ، وزادوا وحرفوا كعادتهم . وقد بلغهم ما لقس من السمعة الطيبة الذكية ، التي كانت له في بطون بلاد العرب وافخاذها ، فاستغلوها كنزاً ثميناً ، وابتغوا الاستفادة منها ، فاختلقوا بعض خطب ، اوسموها ذكر الله والفناء ، والنعيم والجحيم ، ونسبوها اليه ، وظلّلوها باسمه . فنحن لا نؤمن ببعض من خطب قس بل باكثر ما نعرف له ، لما نراه فيها من التكلّف ، وارتجاج الرواية ، ومحاولة التقريب بينها وبين القرآن والاصول الاسلامية ؛ ولكننا لا نجد بأساً ، اذا تعرضنا لما لدينا منها ، منسوبة له ، وسرنا بينها في حدائق الورود والاشواك ! واقتطفنا بعض ما يصادفنا في طريقنا :

قس والآخرة

تعب كلها وباطلة هي ! والموت هو الحياة !

كثير هم الشعراء الذين اتخذوا فكرة الموت خدناً ، وذكرى الآخرة رفيقاً وسميراً يؤنسهم وقت الوحدة ، ويبعث في تلك النفوس الحساسة زهداً وتقشفاً ورذلاً لحياة كلها آلام وشقاء ! كيف لا ! والموت رفيق الوجود ، ومصير الاجسام ! والآخرة مأمن النفوس ، ومصير الارواح !

الموت غاية ، والحياة اسقام ! علم هذا قس وايقن بصيرورته الى الفناء ،

فتزهد ، ونعم ما صار اليه ! وغلب عليه النسك ولزمه فتقفر وسكن البادية. ونتج عن ذلك ان تغلبت على شعره الكآبة ، ووسمت خطبه بالحضّ على ترك الدنيا ، والحثّ على اقتناء الآخرة والتزهد ، ولم يكن في اقواله باعث الى الشك ولا داعي اليه ، ولم يسلك مسلك المعري في ذلك ، بل وقف بعيداً عن الشك في الحياة والآخرة ، الذي كثيراً ما يذهب باصحابه الى التطرف ، فالكفر غالباً ، وهو شرّ الامور. ولكن دعواه كانت دائماً على وتيرة واحدة اي طلب الخالد ، واحتقار العالم . فمن خطبة تنسب اليه عن لسان ابي بكر ، قوله :

« ايها الناس ، اسمعوا وعوا ، واذا وعيتم فانتفعوا ، انه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وارزاق واقوات ، واباء وامهات ، واحياء واموات ، وجمع وشتات ، وآيات بعد آيات ..... ألا ان ابلغ العظات السير في الفلوات ، والنظر الى محل الاموات ، ان في السماء لعبرا ، وان في الارض لعبرا ! »

ثم يختمها بان الله من يجب عبادته « وانه هو المعبود ».

فقس يعتمد على العقل في بحثه عمّا وراء الموت ، متيقناً ان « الموت باب وكل الناس تدخله » لذا يحضّ على الاكتناز للآخرة . من خطبة له يحذر فيها الناس سوء المنقلب ، ويرشدهم سواء السبيل ، قال :

« ايها الناس ! شارفوا ابصاركم في كرّ الجديدين ، ثم ارجعوها كليلة عن بلوغ الامل ، فان الماضي عظة للباقي. ولا تجملوا الغرور سبيل الفخر ، فتنقطع حجتكم في موقف الله سائلكم فيه ، وعاتبكم على ما اسلفتم . ايها الناس ! امس شاهد فاحذروه ، واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغداً رسول فاكرموه ، وكونوا على حذر من هجوم الغدر ، فان اعمالكم تطلق ابدانكم ، والصراط ميدان يكثر فيه العثار ، فالسالم ناج والعاثر في النار ....» (١) !

حقاً « ان الماضي عظة للباقي » ! فان صدق صاحب التذكرة الحمدونية ، وكانت هذه لقس ، فهي دون شك احسن ما تفوّه به فاه . بيد اننا في شكّ منها اذ نرى عليها مسحة غير جاهلية ، تدفعنا الى الشك ، لاسيما ونحن في زمن نرى فيه مخبآت « جاهلية » تظهر للوجود من بين طيّات اكفانها من

(١) راجع هذه الخطبة في « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » للأب لويس شيخو اليسوعي ، صفحة ٣٢٨ ، وجدها الاب في التذكرة الحمدونية (نسخة باريس الخطية من ٣٠ 84)

المخطوطات . . . وكم لا يزال من مخطوط مخبوء ، قد يقذفنا يوماً ما ، باشتات «جاهلية» ؟!

لم يتوسع قس في وصف ما بعد الفناء ، ولعل بين ما فقد من آثاره ما رمز الى هذا . فان ما بيدنا لا يشير إلى ذلك قط ، فالخطبة التي اوردناها منذ هنيهة ، بها تلميح في اقتضاب ليس به ارواء للغليل او شفاء للعليل ، في حين ان امية بن ابي الصلت ، الايادي ايضاً ، ومن معاصريه ، قد انتهج نهجه في ذكرى الآخرة ، لكنه تبسط اكثر منه في وصف ما وراء الموت ، في الابدية اذ يقول:

فكل معمّر لا بد يوماً ... وذي دنيا ، يصير الى زوالِ !
ويفنى بعد جدّته ، ويبلى ... سوى الباقي المقدس ، ذي الجلالِ
وسيق المجرمون ، وهم عراة ... الى ذات المقامع ، والنكالِ
فنادوا : ويلنا ، ويلاً عظيماً ! ... وعجّوا في سلاسلها الطوالِ
فليسوا ميتين ، فيستريحوا ... وكلهم بحرّ النار ، صالِ
وحلّ المتقون ، بدار صدق ... وعيش ناعم ، تحت الظلالِ
لهم ما يشتهون ، وما تمنوا ... من الافراح فيها ، والكمالِ ؟!

هنا اتى امية على ذكر الموت فوصف عقاب الخطاة وزجّهم في جهنم النار ، وثواب التقاة واثابتهم النعيم ، وما هنالك من عذاب وتعذيب وشقاء وافراح وكمال ونعيم ! كل هذا فات قساً ، او قل لم يصلنا منه اي شيء . لان من المستغرب ان امرءاً كقس بلغ من الزهد اسماه ومن التقشف اعلاه ، لا يحفل بكلمة عن الثواب والعقاب في الآخرة . ويترك كلامه على وتيرة واحدة تدعو الى الاملال ، بل الى الضجر ، مهما بلغ صاحبها من متانة اسلوب وبلاغة ؛ وأوتي من فصاحة لسان ، وقوة عارضة ، ولباقة . ولا نقدر ان نعلل هذا السكوت ، سوى بان نذهب الى ان العرب ، لم يدونوا هذه او ان ما دوّن عنّ واندثر كما اندثرت آلاف سواه !

ومما يؤثر عن قس هذه الابيات ، وهي ذات روعة وخشوع :

في الذاهبين الاولين م من القرون ، لنا بصائر
لما رأيت مواردًا ... للموت ، ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الاصاغر والاكابر

لا يرجع الماضي ، ولا يبقى من الباقين ، غابر
ايقنت ، اني لا محا لة ، حيث صار القوم صائر!

صدق قس ، فالعاقل من اتعظ بغيره ، وكان قس كما تراه اول ابنا يعرب ، من نظر الى الآخرة بعين الجد ، واتخذ العقل مرشده ، والحق معقله.

الحكيم في شعره

غريب هو شعر العرب ! قلّ ان تجد شاعراً بالعربية لم يأتك ببعض الحكم والامثال ! سبل عتيقة تبعث الضجر والسآمة ، ومع ذلك فكل ناظم في العربية ، يزجّ نفسه في هذا المعترك ، ويحاول ان يأتي فيه بالمعجزات ، فكيف بقس ، وهو الحاضّ على الزهد والتماس الخلود ، فاذا ليس من العجب ان ترى بين خطبه واشعاره بعض امثال بل كثيراً منها.

مما يؤثر عنه قوله:

«من فاته حسب نفسه ، لم ينفعه حسب».

«البينة على المدّعي ، واليمين على من انكر».

وابياته الحكمية التي اولها « في الذاهبين الاولين » . وينغي عن الايضاح ان نبي الاسلام سمعه في سوق عكاظ ، وكان يخطب في العرب ، على جمل له اورق ، وكان يؤثر عنه كلاماً كثيراً. وقد قال يوماً عنه: « رحم الله قساً ، اني لارجو ان يبعث يوم القيامة ، امة واحدة » وذلك لما كان له من الاثر في نفسه. وممن ذكره ومدحه ايضاً ، الاعشى ، وقد قال فيه:

وافصح من قس ، واجرى من الذي بذي النيل ، من خفّان اصبح خادرا

ومن خطب قس المأثورة:

« ايها الاشهاد ، اين ثمود وعاد ، اين الآباء والاجداد . اين ذهب ابرهة ذو المنار ، وعمرو ذو الاذعار . هل تدرون الى ما صار اليه عبادة الفتاح . واذينة الصبّاح . وجذيمة الوضّاح. عزوا فقهروا. ونموا واثروا. وجدّدوا المصانع والآثار. وجدولوا الانهار . وغرسوا الاشجار . واستخدموا الليل والنهار . فهجمت الآجال. دون الامال . الا وان كل شيء الى الزوال: ثم انشد:

قد كنت اسمع بالزمان ، ولا ارى ان الزمان ، يطيق نتف جناحي
فاراه اسرع فيّ ، حتى اصبحت بيضاً ، متون عوارضي ، وصفاحي
وانا الكبير ، لنبهة في قومه هيهات ! كم تاهت من ارواح
صافحت ذا جدن ، وادرك مولدي شمر بن عمرو ، يتقى بالراح !

والفيل ذو يزن ، رأيت محله بالقهر ، بين جنادل ، ومضاح ؟
فتك الزمان بملك حمير فتكة تمسي بكل عشية ، وصباح
اودى ابو كرب ، وعمرو قبله واباد ملك اذينة الوضاح

. . .

وغدا بابرهة المنار ، فاصبحت ايامه ، سلوبة الاصباح

. . .

لا تغترر في شك المنون ، اما ترى ايامه ، مشهورة الايضاح ؟
لا تأمنن مكر الزمان ، فانه اردى الزمان بشر الوضاح
برك الزمان ، على ابن هانك عرشه وعلى اذينة ، سالب الانواح
انبعد املاك مضوا ، من حمير يرجى الفلاح ، ولات حين فلاح !
من ذا تعانق كفه كف الردى يثري التقى ، عن يسة الارواح !

ومما يلصق بقس ، بعض كلمات حكمية ، زعموا انه قالها لقيصر حين وفد عليه مرة ، فقال له قيصر: «ما افضل العلم؟» قال: «معرفة الرجل بنفسه». قال: «فما افضل العقل ؟» قال: «وقوف المرء عند علمه». قال: «فما افضل الادب ؟» قال: «استبقاء الرجل ماء وجهه.» قال: «فما افضل المروءة؟» قال: «قلة رغبة المرء في اخلاف وعده.» قال: «فما افضل المال؟» قال: «ما قضى به الحق !...»

كلمات على جانب عظيم من الحكمة والعقل ، كلمات حوت اثمن النصائح !... لا نظن ان قسا قائلها ، ولا شك ان العرب اتهموه بها ، لما اطلعوا على آداب الاغريق ، فارادوا الزعم بوجود حكيم عندهم ، يماثل ديوجينس ، في اجابة الرد الحكيم . ولم يجدوا مرتعاً اخصب من قس ، فالقوا هذه ، وكفنوه بها !

نصرانيته

اثنان من اياد ، احدهما عظمته العرب ، والآخر رذلته إلا قليلها ، هما قس بن ساعدة ، وامية بن ابي الصلت . كلاهما ذكره نبي الاسلام ، قال عن الاول : «يرحم الله قساً ، اني لارجو ان يبعث يوم القيامة امة واحدة» . وقال عن الثاني ، حين سمعه: «كاد امية ان يسلم» . ومال لسماع اقوالهما ، وعن كليهما اقتبس واكتسب شيئاً . ولكنه اجاز شعر الاول ، ونهى عن الثاني . فالاول لم يكن رجل حرب ، وابتلعه الموت قبل ان يستنفر لمناجزة

النبي . ولذا أجيزت اقواله .... والثاني كان فارساً مغواراً ، فشاكس النبي ، وقاومه . فنُهي عن مذاكرة اشعاره.

كلاهما كان مسيحياً . امية بن ابي الصلت تؤيده شواهد عدة[1] .وشاعرنا اليوم ابن ساعدة ، له ايضاً منها نأتي على بعضها: اولاً : كونه من اياد ، وكون « مؤرخي الاسلام مع قلة ما كتبوا عن عرب الجزيرة في الجاهلية...صرحوا، كما بيناً سابقاً ، بنصرانية بني اياد بن نزار[2]» . ثانياً : كونه اسقفاً لنجران ، وهذه بلدة مسيحية ذات دير شهير في ذلك الزمن ، وقد طمع في قبتها ذو نوّاس ، وهو تبع يهودي ، واستولى عليها ، وحوّلها الى كعبة لليهود ، كما يحدثنا بذلك الاغاني وابن الاثير .. وهي التي يقول فيها الاعشى :

وكعبة نجران ، حتم عليك م حتى تناخي بابوابها
تزور يزيداً ، وعبد المسيح وقيساً ، وهم خير ارباجها

ثالثاً : وصف الجارود له حين قدم على محمد للاسلام. قال: « يلبس (قس) المسوح ويتبع السياح ، على منهاج المسيح ، لا يغير الرهبانية ، مقراً بالوحدانية.» ويكفي ان نقول ان ممن ذكروا شيئاً عن نصرانية قبيلة اياد ، كان الفارابي ، والبكري ، وابن دريد ، وياقوت ، وغيرهم من الكتّاب ، وبهم خير شاهد واحسن تأكيد.

وفاته

قيل انه توفي حوالي سنة ٦٠٠ للسيد المسيح ، في روحين ، وهي قرب حلب ، في خلف جبل ، حيث كان له مشهد مليح ، يقصد للزيارة ، وتُنذر له النذور ، وله وقف . وممن رثاه ابو جعبل الالبيري الذي زار قبره. فقال:

هذه منازل ذي العلا قس بن ساعدة الايادي
كم عاش في الدنيا ، وكم اسدى الينا من ايادٍ !
قد نالها ، بحسن البلا غة ، مفصحاً في كل نادٍ
قد قرّ في بطن الثرى متفرداً بين العباد !

وقد صار الى « حيث صار القوم » فرحم الله تلك النفس التقية !

---

١) اطلب مثالنا: امين بن ابي الصلت: المشرق (٢٦[١٩٢٧]٤٩٢).
٢) الاب لويس شيخو: النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية – صفحة ٦٩.